تَدَبُّر القرآن

الحُكْمُ والحِكْمَةُ

ودور حلقات تحفيظ القرآن الكريم في تنمية هذا الجانب لدى حملة القرآن

الباحث

د.أحمد بن عبد الله الفريح

عضو هيئة التدريس في قسم القراءات بجامعة أم القرى

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين **وبعد**...

فإن الله أنزل كتابه شرعة للناس ومنهاجاً ، يتلون آياته ، ويفهمون معانيها ، ويتدبرون مدلولاتها ، ثم يستجيبون لأوامرها ، ويقفون عند نواهيها ، ولذلك فقد جعل سبحانه وتعالى لتلاوته ثواباً وأجرا ، ولحفظه فضلاً ومنزلة رفيعة في الدنيا والآخرة، وكل ذلك لا يخرج عن نطاق تدبره وفهمه والعمل به ، ومتابعته في كل ما أمر ، والبعد عما نهى عنه وزجر ، ويؤكد أهمية ذلك بيان خطر مخالفة تعاليمه ، وقد بيَّنَ النبي صلى الله عليه وسلم أن أول من يلقى في النار يوم القيامة حامل القرآن، الذي أخذه رياءً وسمعة[1].

ومن هنا نعلم أن القرآن إنما أنزل لحكمة بالغة ،ألا وهي العمل به، ولا طريق إلى ذلك إلا بتدبر آياته، والاشتغال بمعرفة مضامينه، ومن ثم متابعة أوامره ، والحذر من الوقوع في نواهيه أو الاقتراب من زواجره ، وذلك تأويل قول الله تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[سورة ص:٢٩]، وكل ذلك يحصل بدون حفظه واستظهاره ، مع العلم أن من أضاف إلى ما سبق من التدبر حفظ القرآن فقد بلغ المنزلة العالية الرفيعة ، فمنزله في الجنة عند آخر آية يقرؤها[2] .

(١) سنن الترمذي ، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب ما جاء في الرياء والسمعة برقم:٢٣٨٢ ، ص:٥٣٦-٥٣٧ ، وصححه الألباني .

(٢) رواه الترمذي في سننه، كتاب فضائل القرآن ، برقم:٢٩١٤ ، ص:٦٥١. وقال حسن صحيح.

تمهيد:

لقد جاءت نصوص السنة النبوية آمرة بتلاوة كتاب الله تعالى، وبيان ما يترتب على ذلك من ثواب جزيل، وفضل عظيم، وفي الحديث:"من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن (أ) حرف، و(ل) حرف، و(م) حرف"[1]، ولا يقف الأمر عند قراءة أحرف وكلمات القرآن الكريم، فهو أمر يستوي فيه البر والفاجر والمسلم والكافر، فقراءة القرآن هي الخطوة الأولى، التي يبدأ بها المسلم ، وتلك الخطوة تقوده للدخول إلى معرفة معاني ما يقرؤه من القرآن الكريم.

إن تلاوة القرآن إنما هي إقامة لحجة الله تعالى على المرء ، حيث بلغه كتاب الله تعالى، ووقف على آياته وتوجيهاته، ولا تزال تلك الحجة قائمة عليه حتى يستجيب لأمر الله تعالى الكامن في آياته، ولن يصل إلى دلالات تلك الآيات ويعرف مضامينها حتى يشغل عقله بتدبر تلك الآيات، ويُعمل ذهنه لاستشراف معانيها، ومعرفة أبعادها ومراميها، وتتبع حكمة الله تعالى في آياته وكلماته، ومن خلال ذلك التأمل يشعر المرء بلذة التلاوة وجمال القراءة، ويقف على إبداع النظم وبلاغته، وجمال التوجيه وبراعته، وجمال المقاصد حسنها، فما يملك إلا أن ينقاد إلى أمر الله سبحانه وتعالى في كتابه، ويتضح مما مضى أن القرآن لا يستغني أحد بالتلاوة عن التدبر ، وتدبر الآيات يحمل النفس على

(١) سنن الترمذي ، كتاب ثواب القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر ، برقم:٢٩١٠ ، ص:٦٥١ ، وصححه الألباني.

الاستجابة والانقياد لأمر الله تعالى، وكل منها يأخذ بذيل سابقه، فالتلاوة تقود إلى التدبر، والتدبر يحمل على التذكر والاتعاض، والتذكر يحمل النفس على الاستجابة والانقياد، وهنا يكمن مقصود الله تعالى في إنزال كتاب {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة ص: ٢٩].

مضامين البحث:

يدور البحث على تدبر قول الله تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [سورة ص: ٢٩]، والوقوف على دلالاته ومعانيه وهداياته، وقد تضمن البحث عدة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: وصف القرآن {كتاب أنزلناه إليك}.

المبحث الثاني: أثر القرآن على تاليه {مبارك}.

المبحث الثالث: الحكمة من إنزاله {ليدبروا آياته}.

المبحث الرابع: نتيجة التدبر والعمل بمقتضاه {وليتذكر ألوا الألباب}.

المبحث الخامس: حال السلف مع تدبر القرآن الكريم.

المبحث السادس: طريقة اكتساب ملكة التدبر.

المبحث السابع: برنامج مقترح لتربية طلاب الحلقات على تدبر القرآن الكريم.

المبحث الثامن: الموازنة بين الحفظ والتدبر في حلقات تحفيظ القرآن الكريم.

الخاتمة ثم التوصيات ثم فهرس المصادر والمراجع.

منهج البحث:

لما كان البحث يدور حول تدبر القرآن الكريم، والنظر في آياته، والانقياد لها، جاءت آيات الذكر الحكيم داعية إلى التدبر والتأمل، ومبينة الحكمة من إنزال القرآن الكريم، كان من المناسب أن نقف على آية من تلك الآيات العظيمة، ونستل من ثناياها العبر والفوائد، ونقتنص الحكم والآداب، وما يترتب على ذلك من تذكر وامتثال، ولذلك وقفت من خلال هذا البحث على آية يظهر أنها من أشمل آيات القرآن الكريم حثاً على التدبر والتأمل والتذكر، فمطلعها يصف القرآن ويعظم شأنه، ثم يذكر مصدره، والمبلغ له، ثم يصفه بالبركة الشاملة، ثم يبين الحكمة من إنزاله، ثم يوضح الهدف من تلك الحكمة، وتلك الآية

هي قول الله تعالى {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[سورة ص:٢٩]، وقد استعرضت أقوال المفسرين، محاولاً إظهار ما تحويه هذه الآية من معاني عظيمة، سالكاً مسلك المتدبرين لآيات الكتاب العزيز، فوقفت على تفسير المفسرين للآية، وما الذي وصلوا إليه من خلال تأمل ما تحويه من فوائد ونكت تفسيرية، وأساليب بلاغية.

مراحل التدبر:

يشغل التدبر أهمية بالغة، فلا سبيل إلى إدراك معاني القرآن الكريم، والوقوف على بديع مبانيه إلا بتدبر القرآن الكريم، فهو سمة يبلغ المرء بها قمة لذة التلاوة، والوصول إلى غاية ما ترمي إليه، وتدل عليه، لذا فإن لذة قراءة القرآن الكريم تحصل من خلال ثلاث مراحل:

أولاً: مرحلة التلاوة الصحيحة:

وهي مرحلة مهمة، فلم يُترك أمر قراءة القرآن لاجتهاد الناس وتخرصاتهم، ولكن الله اصطفى من عباده نبياً يبلغ كلامه للناس، ويقرؤه كما أنزل، وكما نطق به رب العالمين، وأمر الناس أن يقرؤا كما أقرأهم وعلمهم فقال عليه الصلاة والسلام "اقرؤوا كما علمتم"[1]، ولذلك اعتنى بها العلماء بتصحيح قراءة القرآن، وتقويم تلاوته، وقسموا اللحن إلى جلي واضح، وخفي لا يدركه إلا المتمكنون من قراءة القرآن الكريم، فصحة قراءة القرآن الكريم أمر مهم له منزلته بين العلوم.

---

(١) سنن الترمذي، كتاب ثواب القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر، برقم: ٢٩١٠، ص:٦٥١، وصححه الألباني.

ثانياً: مرحلة فهم معاني الكلمات:

أنزل الله كتابه بلغة قريش، {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم}[إبراهيم:٤]، فالبيان مقرون بفهم اللغة التي أنزل الله بها القرآن الكريم، ومن لازم أمر الناس بالاقتداء فهم المراد النص، والوصول إلى معاني الكلمات والعبارات، إذ من خلالها نصل إلى فهم الأمر والنهي، ففهم معنى العبارة معقود على فهم الكلمة، وحين تكون الكلمة غير واضحة للقارئ؛ فإنها ستعوق فهم العبارة، وتسبب إشكالاً في فهم النص، وبهذا يتبين أن فهم الكلمات يسبق فهم العبارات، فهي رموز يتوصل بها القارئ إلى فهم النص القرآني.

ثالثاً: مرحلة التدبر والتفكر:

وهي منزلة متقدمة لا يبلغها المرء إلا حين يبلغ درجة فهم الكلمات التي تحويها الآية، فهي منزلة الكل بعد الجزء، والشمول بعد الأفراد، والعموم بعد الخصوص، وهذه المنزلة هي ثمرة التلاوة، بل هي المقصد الأساسي من قراءة القرآن الكريم، فإن الله يقول {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}[ص:٢٩]، وفي ظني أن هذا هو التسلسل الصحيح والمعقول من قراءة القرآن الكريم.

رابعاً: العمل والتطبيق:

وهي ثمرة تلاوة القرآن الكريم، والنتيجة المتوقعة، فالقرآن كتاب هداية ومنهج عمل، {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}[البقرة:١٢١] أي يتبعونه حق الاتباع[1]، فينساقون لتوجيهاته، ولأهمية ذلك فقد أطلق الله تعالى على العمل إيماناً، فانتقد

---

(١) تفسير الطبري: ١/٥٦٦-٥٦٧ - ١٩٩٢م]، محاسن التأويل: ١/٣٥٧

أولئك الذين يأخذون ببعض توجهات القرآن الكريم ويتركون بعضها بقوله {أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض}[البقرة:٨٥] فسمى العمل بالقرآن الكريم إيماناً ، ولعل ذلك لما بين الإيمان القلبي والعمل البدني من ارتباط وثيق ، فمن لوازم الإيمان العمل ، ومفهوم ذلك أن من لم يطبق تعاليم الكتاب لم يؤمن بكتاب ربه حق الإيمان ، بل سمى الله بعض أركان الإسلام العملية إيماناً ، فأطلق الله تعالى على الصلاة إيماناً ، وحين تحولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ، خاف الصحابة أن تكون صلاة من مات منهم قبل تحولها غير مقبولة ، فأخبر الله بقبول صلاتهم بقوله { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ}[البقرة:١٤٣]، فأراد بالإيمان الصلاة [1]، وبناءً على ما مضى فإن الإيمان لا ينفك عن العمل، وتلك هي المرحلة الرابعة من مراحل تدبر القرآن الكريم ، وعليها تدور حكمة إنزال القرآن الكريم .

أهمية تدبر القرآن الكريم:

تدبر القرآن الكريم له أهمية بالغة من أبرز ملامح تلك الأهمية ما يلي:

١. أنه السبيل الأمثل للوصول إلى معاني كتاب الله تعالى والاستفادة منه ، فالقرآن بالنسبة لمن يحفظه ويقرؤه من غير فهم ؛ عبارة عن كلمات مرصوصة تُكوِّنُ جملاً موزونة غير مفهومة .

٢. أن الله ألحق اللوم في كتابه بمن خالف أمره بعدم تدبره للقرآن الكريم فقال أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ}[المؤمنون:٦٨]، وقال{ أَفَلَا

---

(١) سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، باب ومن تفسير سورة البقرة ، برقم : ٢٩٦٤ ، ص:٦٦٣ . قال الألباني : صحيح لغيره.

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[سورة محمد:٢٤]، وقال {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء:٨٢].

٣. أن الله عاقب من عارض شرعه وتكبر على امتثال أمره بأنه صده عن فهم القرآن وتدبره فقال {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[الأعراف:١٤٦].

المبحث الأول

وصف القرآن {كتاب أنزلناه إليك}.

افتتحت هذه الآية بوصف كتاب الله تعالى، وبيان مصدره ومُبَلِّغه إلى العالمين، إذ إن عَظمة الأمر من عَظمة مصدره، وعَظَمة الخطاب ناشئة من عَظَمة المتحدث به، وهو رب العالمين سبحانه وتعالى، وأهمية الرسالة كامنة في مَنزِلَة حاملها ومبلغها، وهو سيد الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، وبذلك ثبت بأن هذا القرآن "ذو الذكر والشرف الأعظم"[1] ولذلك افتتحت الآية بوصف هذا القرآن العظيم فقال سبحانه {كتابٌ} وقد وصف الله هذا القرآن هنا بأنه كتاب مجموع بين دفتي المصحف ، فأخبر عنه بالحال التي هو عليها بين أيدي الناس ، حيث جمع بين دفتي مصحف واحد ، فأصبح كتاباً منشوراً بين

---

(١) نظم الدرر: ٣٨١/٦ .

الناس ؛ بعد أن كان مفرقاً على الألواح والجلود والعظام ، فلم يصفه سبحانه بأنه وحي ، إذ من المتوقع أن يأتي أحد فيدعي أن ذلك الوحي الذي أنزله الله على عباده ليس هو هذا الكتاب الذين بين أيدي الناس اليوم ، وبوصف القرآن بأنه كتاب قطع لدابر أولئك المشككين في مصداقية القرآن الكريم وحفظ الله تعالى له .

وارتفع لفظ {كتابٌ} على إضمار مبتدأ أي هذا كتاب[1]، وقيل هو كتاب لا يحاط بعظمته[2]، ولذلك جاء لفظ {كتابٌ} منكراً للتعظيم ، وقيل ارتفع على أنه خبر مبتدأ محذوف[3]، وابتدئ به مع أنه نكرة وسوغ الابتداء به وصفه بجملة {أنزلناه}، ويجوز أن يكون الذي سوغ الابتداء بالنكرة هو ما في المنكر من التعظيم ، فالتعظيم الكامن في تنكير لفظ {كتاب} هو الذي سوغ الابتداء بالنكرة ، وبناء عليه تكون جملة {أنزلناه} خبر أول و{مبارك} خبر ثاني ، و{ليدبروا} متعلق بـ{أنزلناه}[4].

وقوله {أنزلناه} يعني القرآن[5]، وصفه بأنه أنزله من عنده سبحانه وتعالى، ونسب الفعل إليه بنون العظمة إشارة إلى عظمة القرآن المنزل من عنده سبحانه وتعالى[6]، وفي هذا الجملة بيان لأمر مهم ألا وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخطه

(١) تفسير النسفي:٦١/٤ ، البحر المحيط:٣٧٩/٧ ، الدر المصون:٣٧٣/٩-٣٧٤ .
(٢) نظم الدرر:٣٨١/٦
(٣) فتح القدير:٤٩٤/٤ ، روح المعاني:١٨١/١٢ .
(٤) التحرير والتنوير:٢٥١/٢٣ .
(٥) تفسير النسفي:٦١/٤
(٦) نظم الدرر:٣٨١/٦ ، فتح القدير:٤٩٤/٤ ، الدر المصون:٣٧٣/٩

بيمينه {وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ}[العنكبوت:٤٨] فلم يكتبه بقلمه ، ولم يأت به من عند نفسه ، بل هو من عند الله سبحانه وتعالى ، ويؤكد ذلك سبحانه وتعالى بقوله {إليك} فلم يصدر عنه ولكنه أنزل إليه.

وفي قوله تعالى:{ إليك} إيحاء بأن في إنزاله على سيد الأنبياء والمرسلين بيان لعظمة هذا الكتاب[1]، فالمتحدث بمضمون هذا الكتاب رب العالمين ، والمنزل له جبريل عليه السلام سيد الملائكة أجمعين ، ومبلغه محمد صلى الله عليه وسلم سيد الأنبياء والمرسلين ، فحري بكتاب مرَّ على هذه السلسلة العظيمة من أن يؤخذ به ، وحري أن يُجعل منهاج حياة .

(١) نظم الدرر: ٣٨١/٦

المبحث الثاني

أثر القرآن على تاليه {مبارك}:

المبارك: هو المنبثة فيه البركة وهي الخير الكثير ، وجميع آيات القرآن الكريم تحمل في طيها الخير الكثير ، فهي مرشدة إلى كل خير ، وصارفة عن كل شر في العاجلة والآجلة[2]، "والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء ، .. ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يُحَسُّ على وجه لا يُحصى ولا يحصر قيل لكل ما يُشَاهَدُ منه زيادة غير محسوسة هو مبارك، وفيه بركة"[3]، ووصف الله القرآن الكريم في موضعٍ من كتابٍ بأنه مباركٌ فقال {وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ}[الأنبياء:٥٠].

وقوله {مبارك} صفة أخرى لكتاب[4]، وقيل مبتدأ آخر مبين لما

(٢) التحرير والتنوير:٢٥١/٢٣
(٣) مفردات ألفاظ القرآن:١١٩.
(٤) تفسير النسفي:٦١/٤ ، البحر

قبله على طريق الاستئناف ، وقيل خبر ثان للمبتدأ ، وقيل لا يجوز أن يكون صفة أخرى لكتاب ؛ لما تقرر من أنه لا يجوز تأخير الوصف الصريح عن غير الصريح، وأجازه بعض النحاة ، والتقدير: القرآن كتاب أنزلناه إليك يا محمد كثير الخير والبركة [1]، وقرئ {مباركاً} منصوباً على الحال من مفعول {أنزلناه} [2]، فهي حالٌ لازمة لأن البركة لا تفارقه [3]، والمبارك "دائم الخير كثير النفع ؛ ثابتٌ كل ما فيه ثباتاً لا يزول أبداً ولا ينسخه كتاب

المحيط:٣٧٩/٧.

(١) فتح القدير:٤٩٤/٤، روح المعاني:١٨١/١٢ ، الدر المصون: ٣٧٣/٩-٣٧٤.

(٢) وهي قراءة شاذة . فتح القدير:٤٩٤/٤ ، البحر المحيط:٣٧٩/٧ ، روح المعاني: ١٨١/١٢.

(٣) روح المعاني: ١٨١/١٢ ، الدر المصون:٣٧٤/٩.

ولا شيء" [4]، وقال ابن عطاء: "مبارك على من يسمعه منك فيفهم المراد منه" [5] ، فجعل البركة خاصة بمن امتثل أمر الله واستجاب لمراده ، وقال الألوسي:"أي كثير المنافع الدينية والدنيوية خبر ثان للمبتدأ أو صفة {كتاب}" [6].

قال ابن عطية:"وصفه بالبركة ... لأنه يورث الجنة وينقذ من النار ، ويحفظ المرء في حال الحياة الدنيا ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة الآخرة" [7]، ومفاد كلامه أن من لم يستجب لأمر القرآن ويطوع نفسه لتعاليمه ، ولم ينفعه القرآن بأن أنقذه من النار وأدخله الجنة لم ينتفع ببركة القرآن ، بمعنى أن قارئ القرآن لن ينال من بركة القرآن إلا بقدر ما

---

(٤) نظم الدرر:٣٨١/٦.

(٥) حقائق التفسير:١٨٥/٢.

(٦) روح المعاني: ١٨١/١٢.

(٧) المحرر الوجيز:٥٠٢/٤ .

يستجيب لأمر القرآن ويسير على هديه ، ويطبقه على واقع حياته ، فبركة القرآن لا حدود لها ، ويغترف منها كل قارئ بحسب تطبيقه لتعاليمه.

المبحث الثالث

الحكمة من إنزاله {ليدَّبروا آياته}.

التدبر: "هو التفكر والتأمل الذي يبلغ به صاحبه معرفة المراد من المعاني، وإنما يكون ذلك في كلام قليل اللفظ كثير المعاني التي أودعت فيها بحيث كلما ازداد المتدبر تدبراً انكشفت له معان لم تكن بادية له بادئ النظر" [1].

وتدبر الآيات يكون بالنظر في عواقبها وما تشير من دلالات وعبر، وما توصل إليه من المعاني الباطنة الخفية، والنكت اللطيفة، والتي لا تحصل إلا بطول التأمل والنظر في كتاب الله تعالى، وبذلك تحصل الفائدة المرجوة من تلاوة القرآن الكريم، ومثل من يشتغل بحفظ الحروف والكلمات دون أن يغوص في معانيها مدلولاتها ؛ كمن لديه ناقة

---

(١) التحرير والتنوير:٢٥٢/٢٣

حلوب لا يحلبها، ومهرة نتوج لا يستولدها – أي لديه فرس قابلة للإنتاج ولكنه لا يسعى للحصول على ولدها – ، ومن كان على تلك الحالة كان جديراً بأن لا يستفيد من كتاب الله الفائدة المرجوة[1]، قال الحسن البصري:"تدبر آيات الله اتباعها" [2]، وأخرج سعيد بن منصور عن الحسين رضي الله عنه أنه قال في قوله {ليدبروا آياته} "اتباعه بعمله" [3].

لما أنزل الله كتابه على عباده وضمنه تعاليمه، أراد من عباده أن يتخذوا هذا القرآن دستوراً ومنهجاً يسيرون عليه ويرجعون إليه، ويحتكمون إلى تعاليمه وآياته، ولن يحصل ذلك إلا بتدبر آياته وفهم عباراته، والوقوف على مقصود الله سبحانه وتعالى من كتابه، ولما كان حصول المقصود من إنزال القرآن الكريم لا يتم إلا بالتدبر لهذا الكتاب الكريم أمر الله بذلك فقال {ليدبروا آياته} "وأصله ليتدبروا فأدغمت التاء في الدال، متعلق بـ{أنزلناه}[4]، ومعناه ليتفكروا فيها، فيقفوا على ما فيه ويعملوا به ، وعن الحسن:"قد قرأ هذا القرآن عبيدٌ وصبيان لا علم لهم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده"[5]، قال الإمام الزمخشري:"تدبر الآيات التفكر فيها والتأمل الذي يؤدي إلى معرفة ما يدبر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأن من اقتنع بظاهر المتلوّ لم يَحْلُ[6] منه بكثير طائل"[7].

(١) نظم الدرر:٣٨١/٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن:١٢٦/٨ .

(٣) الدر المنثور: ٥٧٨/٥

(٤) نظم الدرر:٣٨١/٦، فتح القدير:٤٩٤/٤

(٥) محاسن التأويل:٩٧/٦.

(٦) أي لم يستفد منه كبير فائدة.

(٧) تفسير الزمخشري:٩٠/٤.

ثم عقب بذكر الغاية من إنزال القرآن الكريم وهو التدبر[1]، قال أبو عبد الرحمن السلمي:"قال بعضهم: لا سبيل إلى فهم كتاب الله إلا بقراءته والتفكر والتيقظ والتذكر وحضور القلب فيه"[2]، "وقال بعضهم: من أصابته بركة القراءة رزق التدبر في آياته ، ومن رزق التدبر لم يحرم التذكر والاتعاظ به"[3]، قال الإمام الطبري:"ليتدبروا حجج الله التي فيه، وما شرع فيه من شرائعه، فيتعظوا ويعملوا به"[4].

وقوله {ليدَّبروا} متعلق بـ{أنزلناه}، ويجوز أن يكون متعلقاً بمحذوف يدل عليه، وأصله ليتدبروا بتاء بعد الياء[5]، .. وبه قرأ علي رضي الله عنه[6]، والمراد أنزلناه ليتفكروا في آياته التي من جملتها هذه الآية لمعرفة عن أسرار التكوين والتشريع فيعرفوا ما يدبر ويتبع ظاهرها من المعاني الفائقة والتأويلات اللائقة"[7]، ومضمون الآية يشير إلى حكمة إنزال القرآن ، فلم يترله الله تعالى ليتباهى الناس ، ويتمارى به الحفاظ ، دون اعتناء بمضمونه. واستخراج لمكنونه، وأخذ بمراده ومطلوبه ، قال ابن عطية:"وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن، فالترتيل إذاً أفضل من الهذّ[8]، إذ التدبر لا يكون إلا مع

(١) نظم الدرر:٣٨١/٦

(٢) حقائق التفسير:١٨٥/٢.

(٣) حقائق التفسير:١٨٥/٢

(٤) تفسير الطبري:٥٧٦/١٠

(٥) المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة :١٩٦/٣

(٦) وهي قراءة شاذة لم ترد في المتواتر.

(٧) روح المعاني:١٨١/١٢

(٨) المراد بالهذ هو القراءة السريعة التي لا يحصل معها تأمل أو تدبر للقرآن الكريم ، قال الفيروز أبادي : الهذ سرعة القراءة . القاموس المحيط. مادة هذ ، باب الذال ، فصل الهاء . ٤٨٧/١ وانظر اللسان ، مادة هذذ .

الترتيل"[1]، فالتأني في التلاوة له أثر كبير في حصول التدبر، إذ كيف يتدبر آيات القرآن من ينظر إلى آخر السورة، أو يستهويه الكمُّ، ولا يبالي بالكيف.

وقد وردت في قوله تعالى {ليدبروا} عدة قراءات :

القراءة الأولى: {ليدَّبروا} وهي قراءة الجمهور بإدغام التاء في الدال[2]، وفيه بيان علة إنزال هذا الكتاب، وأن الهدف من إنزاله هو تلاوته و تدبره [3]، وتوجيه الأمر إلى عموم الناس لا يفيد بأن الأمر منصرف عنه صلى الله عليه وسلم بل إن الأمر بالتدبر موجه إليه صلى الله عليه وسلم ابتداءً إذ هو المبلغ لكلام الله ، فهو داخل في الأمر ابتداءً ، ولقد كان عليه الصلاة والسلام في غاية التدبر والتفكر لكتاب الله تعالى [4]، وفي قراءة التشديد وإدغام التاء في الدال إشارة إلى أنه لابد من تدبر وتأمل كل ما يقرع السمع من آيات وكلمات، وتأمل ما ترمي إليه من معاني لا تظهر بادئ الأمر، ولا تنجلي معانيها إلا بشيء من الجهد والتأمل الذي يوحي إليه التشديد على الدال في قوله {ليدَّبروا}، "ولما كان السياق للذكر، وأُسند إلى خُلاصة الخلق - محمد صلى الله عليه وسلم بقوله {إليك}- وكان استحضار ما كان عند الإنسان وغفل عنه لا يشق لظهوره، أظهر التاء حثاً على بذل الجهد في إعمال الفكر والمداومة على ذلك؛ فإنه يفضي بعد المقدمات الظنية إلى أمور يقينية قطعية إما محسوسة أولها شاهد في الحس

٦٤/١٥

(١) المحرر الوجيز:٥٠٣/٤

(٢) النشر : ٣٦١/٢ ، غاية الاختصار : ٦٣٧/٢

(٣) نظم الدرر:٣٨١/٦ ، البحر المحيط:٣٧٩/٧ ، جامع البيان:٥٧٦/١٠

(٤) نظم الدرر:٣٨١/٦

فقال:{وليتذكر}" [1]، قال الإمام الزجاج:"المعنى هذا كتاب ليدبروا آياته، وليفكروا في آياته ، وفي أدبار أمورهم أي عواقبها"[2].

القراءة الثانية: {لتَدَبَّرُوا} وقرأ أبو جعفر [3] وشيبة بالتاء الفوقية على الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه وأصحابه بحذف إحدى التاءين" [4]، وهي رواية عن عاصم[5]، ورويت هذه القراءة عن عاصم والكسائي[6]، وهي قراءة علي رضي الله عنه [7]، ورويت عن الأعشى[8]، والأصل لتتدبروا بتاءين، فحذف إحداهما تخفيفاً[9]، وفي هذه القراءة توجيه اشتراك الأمة بالتوجيه الرباني بأن تتدبر كتاب ربها سبحانه وتعالى، فهي مقصودة بالتدبر مخاطبة به، قال الإمام الشوكاني:"وفي الآية دليل على أن الله إنما أنزل القرآن للتدبر والتفكر في معانيه، لا لمجرد التلاوة بدون تدبر"[10]، قال الإمام القرطبي:"وفي هذا دليل على وجوب معرفة معاني القرآن ودليل على أن الترتيل أفضل من الهذّ، إذ لا يصح التدبر مع الهذ"[11]، ولعله يريد أن التدبر لا يتأتى مع التلاوة السريعة ، قال الإمام الشنقيطي:"أما كون تدبر آياته من حِكم إنزاله فقد أشار إليه في بعض الآيات، بالتخصيص على تدبره ، وتوبيخ من لم يتدبره ، كقوله

---

(١) نظم الدرر:٣٨٢/٦

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ٣٢٩/٤.

(٣) النشر: ٣٦١/٢

(٤) تفسير النسفي: ٦١/٤ ، جامع البيان:٥٧٦/١٠ ، البحر المحيط:٣٧٩/٧ ، إعراب القراءات الشواذ:٣٩٥/٢

(٥) المبسوط: ٣١٩ ، زاد المسير:٣٣٣/٦

(٦) جامع البيان:٦٩٤

(٧) مختصر في شواذ القرآن ،:١٣٠.

(٨) التذكرة ، لابن غلبون:٥٢٤/٢ .

(٩) فتح القدير:٤٩٤/٤ ، التحرير والتنوير:٢٥٢/٢٣ ، الدر المصون:٣٧٤/٩

(١٠) فتح القدير:٤٩٤/٤

(١١) تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن للقرطبي):١٢٦/١٨

{أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد: ٢٤]، وقوله {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: ٨٢]، {أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ} [المؤمنون: ٦٨]"[1].

(١) أضواء البيان: ٣٤/٧

المبحث الرابع

نتيجة التدبر والعمل بمقتضاه {وليتذكر أولوا الألباب}.

لقد بين المولى سبحانه وتعالى الحكمة البالغة من إنزال كتابه، وأنه إنما أنزله ليتدبره المؤمنون، ويعتبروا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، فتورثهم ذكرى، وخوفاً وخشية، فثمرة التدبر هي التذكر، والاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى، ولذلك أعقب التدبر حصول أثره، فليس بعد التدبر إلا حصول الذكرى لأولي الألباب، ولذلك قال {وليتذكر أولوا الألباب} "أي وليتعظ بالقرآن أولوا العقول"[2]، والألباب جمع لب، و"اللب هو العقل الخالص من الشوائب، وسمي بذلك لكونه خالصُ ما في الإنسان من معانيه،

(٢) تفسير النسفي: ٦١/٤، فتح القدير: ٤٩٤/٤

وقيل هو ما زكى في العقل، فكل لبٍ عقلٌ وليس كل عقل لباً، ولهذا علق الله تعالى الأحكام التي لا يدركها إلا العقول الزكية بأولي الألباب"[1]، قال الألوسي: "أي وليتعظ به ذوو العقول الزاكية الخالصة من الشوائب أو ليستحضروا ما هو كالمركوز في عقولهم لفرط تمكنهم من معرفته لما نصب عليه من الدلائل فإن إرسال الرسل وإنزال الكتب لبيان ما لا يعرفه إلا من جهة الشرع كوجوب الصلوات الخمس، والإرشاد إلى ما يستقل العقل بإدراكه كوجود الصانع جل جلاله وعم نواله"[2]، قال ابن جرير: "وليعتبر ألوا العقول والحجا ما في الكتاب من الآيات، فيرتدعوا عما هم عليه مقيمين من الضلالة، وينتهوا إلى ما دلهم عليه من الرشاد وسبيل الصواب"[3]، قال الحسن البصري: "والله ما تدبره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله فما أسقطت منه حرفاً وقد والله أسقطه كله، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل، والله ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة، لا كثَّر الله في الناس مثل هؤلاء"[4]، وخلاصة كلام الأئمة أن الله إنما أنزل كتابه ليفهم مضمونه، ويطبق على واقع حال المسلم، فليس الهدف من إنزال القرآن الترنم بتلاوته والتمايل عند قراءته، والتغني بآياته، والتفنن بقراءات ورواياته، وإظهار روعة الأداء، وجودة التجويد، واستعراض البراعة في قوة حفظه،

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٧٣٣، فتح القدير: ٤٩٤/٤.

(٢) روح المعاني: ١٨١/١٢-١٨٢

(٣) جامع البيان: ٥٧٦/١٠

(٤) تفسير ابن كثير: ٣٤/٤، محاسن التأويل: ٩٧/٦.

والتباهي بجميع ذلك ؛ مع إغفال جانب الفهم والتدبر والتَّفكُّرِ في آياته ، والانصراف عن تلقف معانيه وتوجيهاته بالعمل والتطبيق ، ولذلك فقد خصَّ الله التذكر ؛ فقصره على أولي الألباب ، وذلك هو القصد والمراد من إنزال القرآن على سيد الأنبياء والمرسلين ، فإن الله تعالى أعقب الإخبار بإنزال القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم بأمر مهم لابد أن يرافق الإنزال ويحصل معه ، وهو التدبر ومن ثم التذكر والاعتبار والانقياد ، والملاحظ أن الله أعقب الإخبار بإنزال القرآن بالأمر بالتدبر مباشرة ، ولم يذكر الحلقة التي تصل بين إنزال القرآن والتدبر وهي التلاوة ، حيث لم يقل (كتاب أنزلناه إليك ليقرؤوا ويتدبروا آياته ..)، وفي ذلك إشارة إلى أهمية المبادرة إلى التدبر الذي يعقبه التذكر والاعتبار ، وفي ذلك يتمايز الناس ، حيث إن قراءة القرآن كلٌ يجيدها ويحسنها ولكن العاقبة لمن تدبر وفهم ، وذلك يؤكد أهمية استحضار جانب التدبر أثناء القراءة ، بل يجب على المسلم أن يهيئ نفسه لتدبر القرآن قبل أن يشرع بتلاوته.

المبحث الخامس

حال السلف مع تدبر القرآن الكريم:

للسلف مع تدبر القرآن الكريم أحوال وأخبار ، وإمام السلف وقدوتهم هو المصطفى صلى الله عليه وسلم فقد ثبت أنه كان يردد بعض الآيات ومنها قوله تعالى {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[المائدة:١١٨] [١] ، وكان يتدبره حين يسمع آياته من غيره ، فقد سمع سورة النساء من ابن مسعود رضي الله عنه ، فذرفت عيناه عندما سمع قوله تعالى {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ}[النساء: ٤١] [٢]، ومن ذلك ما روي عن مسروق قال: قال لي رجل من أهل مكة ؛ هذا مقام أخيك تميم الداري ، لقد رأيته ذات ليلة حتى أصبح أو قَرُبَ أن يصبح يقرأ بآية من القرآن يركع فيها ويسجد ويبكي {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}[الجاثية :٢١] [٣]، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال:" لأن أقرأ في ليلة سورة أتدبرها وأفكّر فيها أحب إلي من أن أقرأ القرآن"[٤]، قال الليث ويلغنا أن رجلاً قال لابن مسعود رضي الله عنه قرأت المفصل في ركعة ، فقال له ابن مسعود رضي الله عنه: هذّاً كهذّ الشعر ، أو نثراً كنثر الدقل" [٥]،

(١) سنن ابن ماجة ، باب ما جاء في القراءة في صلاة الليل، حديث رقم ١٣٥٠ ، وحسنه الألباني

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب قول المقرئ للقارئ : حسبك ، ص:٩٦٥

(٣) فضائل القرآن للمستغفري:١٦١/١ .

(٤) كتاب فضائل القرآن للمستغفري:١٦١/١.

(٥) كتاب فضائل القرآن للمستغفري:١٦٢/١. قال في اللسان: "أي كما يتناثر الرطب اليابس من العذق إذا هُزَّ".

وصلى الربيع بن خثيم فقرأ بآية حتى أصبح {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}[الجاثية:٢١] فجعل يرددها حتى أصبح [١]"، وعن سعيد بن عبيد قال رأيت سعيد بن جبير وهو يؤمهم في رمضان يردد هذه الآية {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ}[غافر:٧١] و{يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ}[الانفطار:٦] يرددها مرتين أو ثلاثاً" [٢]، وروي عن محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه يقول :"لأن أقرأ {إذا زلزلت}و{القارعة} ليلة أرددهما وأتفكر فيهما أحب إليَّ من أن أبيت أهذُّ القرآن" [٣]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:"لا تهذوا القرآن كهذ الشعر ولا تنثروه نثر الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب"[٤]، وسئل مجاهد عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وقرأ الآخر البقرة وآل عمران فكان ركوعهما وسجودهما وجلوسهما سواء أيهما أفضل ، قال الذي قرأ البقرة، ثم قرأ مجاهد {وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا}[الإسراء:١٠٦]، والآثار في شأن السلف مع تدبر القرآن الكريم كثيرة ، نكتفي بهذه الإلماحة اليسيرة.

لسان العرب: مادة نثر ، ١٤/٣٧-٣٨

(١) رواه ابن أبي شيبة رقم الأثر:٨٣٧١ .

(٢) ابن أبي شيبة برقم:٨٣٦٩

(٣) ابن أبي شيبة برقم:٨٧٣٢

(٤) ابن أبي شيبة برقم:٨٧٣٣

المبحث السادس

طريقة اكتساب ملكة التدبر

تدبر القرآن الكريم أمرٌ مبذول لكل من قرأ آياته ، ويمنحه المولى سبحانه وتعالى لكل من أشتغل به ، وأعمل ذهنه فيه ، وقد بيَّنَ الله أن القرآن أغلب القرآن الكريم مفهوم المعنى ، واضح الدلالة، فقال: {مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ}[آل عمران:٧]، فلا يستعصي على الأفهام ، ولا تكل في فهمه الأذهان ، ولا تعجز عن فهم مراده العقول ، بل هو ظاهر المعنى ، واضح الدلالة ، ولذلك أنزله الله بلسان قومه ليسهل عليهم فهمه ، وليكون في متناول الجميع ، فيفهمه العامي قبل العالم ، ويدركه الصغير والكبير ، فإذا فهم المعنى والمراد حصل التدبر والتأمل.

وبما أن القرآن الكريم قريب من الأفهام ، يسهل تدبره ، ويمكن إعمال الذهن فيه ، فقد أمر الله عباده بتدبره ، ومحاولة فهم مراميه ومقاصده ، ومن المعلوم أن الله لا يأمر عباده إلا بما يقدرون عليه ، ويسهل انقيادهم إليه ، ويمكنهم القيام به ، ومن غير الصواب أن يؤمر العاجز بما لا يقدر عليه ، فتبين بما مضى أن الله أمر عباده بما يمكنهم الاستجابة له والقيام به ، وقد أمرهم بتدبر القرآن والتذكر بما فيه من وعد ووعيد ، وأمر ونهي وزجر شديد ، ومن عجيب شأن تدبر القرآن الكريم أن لفظه يحتمل ما فيه معاني ودلالات إذا لم تعارض مقاصد الدين وأصوله ، ولم يعارضه صريح تفسير المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فهو غني بالهدايات التي من الممكن استنباطها من آياته وكلماته.

وعليه أقول إن الله تعالى أمر كل قارئ للقرآن أن يتدبره ويتأمله ، فالكل مخاطب بالتدبر على قدر ما أعطي من فهم وعلم ومعرفة ، وفي ذلك يتفاضل الناس ، فالعالم يفهم من القرآن ويرى في آياته ما لا يراه من دونه في العلم والمعرفة ، والعامي يفهم من القرآن بقدر ما لديه من علم ومعرفة وثقافة .

ولقد اعتنى العلماء بتدبر القرآن الكريم فألفوا فيه المؤلفات ، وقعدوا لتدبره القواعد التي تعين المسلم على فهم القرآن وتدل القارئ على طرق اكتسابه ، ومن تلك المؤلفات :

١. مفاتيح تدبر القرآن الكريم للدكتور خالد بن عبد الكريم اللاحم.

٢. تدبر القرآن تأليف سلمان بن عمر السنيدي.

٣. تفهيم القرآن العظيم تأليف محمد فاروق الزين.

٤. قواعد تدبر القرآن لعبد الرحمن حبنكة الميداني.

وغيرها كثير ، وقد اختلفت مناهجها وأساليبها في تناول جانب التدبر، فمنها ما وقف على مضامين السور ونظر إلى معانيها ، ومنها ما يدور عليه مضمونها ، ومنها ما وقف على تحديد الإطار العام للتدبر ، وكيفية اكتساب مهارة التدبر لكتاب الله تعالى ، فمدار تلك الكتب على الجانب التطبيقي والنظري.

المبحث السابع:

برنامج مقترح لتربية طلاب الحلقات على تدبر القرآن الكريم

من أهم ثمرات هذا البحث المختصر ، ومن أهم الفوائد التي نجنيها من تدبر هذه الآية ؛ هو أن نقوم بتربية أبنائنا على تدبر آيات القرآن الكريم ، وسأقترح برنامجاً وأسلوباً لتربية طلاب حلقات تحفيظ القرآن الكريم على تدبر آيات كتاب الله تعالى، وذلك من خلال الخطوات التالية:

١. بيان أهمية تدبر القرآن الكريم.

٢. تحديد يوم خاص بتدبر القرآن يطلق عليه يوم "التدبر"، يتولى المدرس تفسير آيات يسيرة واستثارة أذهان الطلاب لتدبرها.

٣. تحديد مقدار معين لا يتجاوز عشر آيات ليقوم الطلاب بتدبره.

٤. يفضل حث الطلاب على قراءة تفسير الآيات قبل الحضور إلى الحلقة.

٥. تقسيم الطلاب إلى مجموعات كل مجموعة تتكون من ٣-٥ طلاب.

٦. تقوم كل مجموعة بقراءة الآيات ومحاولة استخلاص ما فيها من دروس وهدايات ومعاني ودلالات.

٧. يشرف المعلمون والمعلمات على مجموعات الطلاب أثناء فترة التدبر ، وذلك من خلال توجيههم التوجيه الصحيح للوصول إلى التدبر الصحيح لكتاب الله تعالى.

٨. تكليف شخص من كل مجموعة بعرض وبيان فائدة أو أكثر من فوائد تدبر الآيات.

٩. الإشادة بالمجموعة المتميزة في تأملها واستخلاص الفوائد

من الآيات.

١٠. حث الطلاب على نقل هذه الفوائد إلى من وراءهم من أهل وأسرة.

١١. بيان كيفية الاستفادة من تدبر الآيات ، وكيفية تطبيقها على أرض الواقع.

المبحث الثامن:
الموازنة بين الحفظ والتدبر لدى حلقات تحفيظ القرآن الكريم

إن المتأمل لدور حلقات تحفيظ القرآن الكريم يلاحظ أنه قائم فقط على متابعة حفظ الطلاب للآيات عن ظهر قلب ، ونقل الآيات من السطور إلى الصدور ، مع أن المقصود الأهم هو تربية النشء على تعاليم القرآن ، وحثهم على فهم معانيه ، والاستفادة من هداياته وعظاته .

لقد جاءت النصوص الشرعية محذرة من الاقتصار على حفظ اللفظ، بعيداً عن فهم المعاني السامية التي تحملها الآيات ، مبينةً مغبة ذلك على الفرد والمجتمع ، فمن لم تربي معاني الآيات قلبه ؛ ولم تكسبه الخشوع والخشية ، فإنها حتماً ستحمله على التعالم والتعالي والاغترار بحفظ رسم القرآن ، دون فهمٍ لما يحويه نظمه أو

تحمله كلماته ، وقد جاءت الآثار مبينة بعض معالم من اقتصر على حفظ رسمه دون فهم دلالة نظمه ، ومنتقدة قصورهم في ذلك ، فقال حذيفة رضي الله عنه يصف أولئك:"إن من أقرأ الناس منافقاً لا يترك واواً ولا ألفاً يلفته [١] بلسانه كما تلتفت البقرة الخلا بلسانها لا يتجاوز ترقوته"[٢]، وأن ذلك الحفظ لم يعمق الإيمان في قلوبهم ولذلك تراهم "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"[٣]، فهم على شفا جرفٍ هارٍ ، يعبدون الله على حرف ، وسرعان ما ينكصون على

(١) قال ابن الأثير في النهاية :"المعنى أنه يقرؤه من غير روية ولا تبصُّر وتعمُّد للمأمور به ، غير مبالٍ بتلوه كيف جاء ، كما تفعل البقرة بالخشيش إذا أكلته". النهاية في غريب الحديث:٤/٢٥٩ ، باب اللام مع الفاء .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة برقم:٨٧٣٦

(٣) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ، حديث رقم:٦٩٣١ ص:١٢٧٩ .

أعقابهم ، وقال عليه الصلاة والسلام مبينا بعض علاماتهم التي توحي بإيمان عميق ، وتمسك بالدين راسخ ، ولكنهم في الحقيقة على خلاف ذلك بسبب خلو قلوبهم وعقولهم من الفهم والمعرفة بكتاب الله تعالى "تحقرون صلاتكم إلى صلاتهم وصيامكم إلى صيامهم " [٤] ، فهم يقيمون حروفه ويضيعون حدوده ، وبالتالي تتضح أهمية اجتماع الأمرين الحفظ ؛ والفهم الناشيء عن تدبر كتاب الله تعالي ، ثم العمل بما دل عليه القرآن الكريم .

لذا فإن من أهم الوجبات على المؤسسات التي تتولى الإشراف على حلقات تحفيظ القرآن الكريم أن تراعي الجانبين وتوازن بين الطرفين .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن ، ص:٩٦٧

يترتب على ما مضى من بيان خطورة الاقتصار على الحفظ بعيداً عن الفهم ، أهمية تغليب جانب الفهم على جانب الحفظ ، وأن الحافظ لن يحوز فضل حفظ كتاب الله تعالى إلا باستقامته على ما أمر الله به في كتابه، وذلك أنه إن خالف مدلول معانيه فسيكون حجة عليه يوم القيامة ، وإن استقام عليه نال أعلى الفضائل وارتقى أعلى الرتب ، ولذلك قال في الحديث:"يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها" [1]، فقال "صاحب القرآن" ولم يقل حافظ أو قارئ القرآن ، ومن المعلوم أن الصاحب هو الملازم المتأثر بصاحبه من كثرة صحبته ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أن أول من تسعر بهم النار يوم القيامة ثلاثة ، قارئ القرآن والمجاهد والعالم ، وأول أولئك الثلاثة قارئ القرآن الذي لا يعمل به [2]، وقد ذكر المصطفى صلى الله عليه وسلم أن شفاعة القرآن الكريم لأصحابه [3]، وفي ذلك إيضاح وبيان لسمات أهل القرآن وأنهم هم الذين يعملون به في الدنيا ، وليسوا الذين يحفظونه في صدورهم فحسب ، و الدليل على ذلك أن الله وبخ الذين لا يتدبرونه ولم يوبخ الذين لا يحفظونه عن ظهر قلب ، فقال ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[سورة محمد:٢٤] ، وقال ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ

(١) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل في القراءة .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، حديث رقم:١٩٠٥ ص:٨٥٠

(٣) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، رقم الحديث: ٨٠٤

عند غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[النساء:٨٢] ، وقال ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[المؤمنون/٦٨] ، ولم يرد في القرآن الكريم والسنة الأمر بحفظ القرآن صراحة ، وإنما ورد ذلك ضمناً كما في قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[العنكبوت:٤٩] وكونه في الصدور يدل على أنه محفوظ .

خاتمة البحث:

في ختام هذا البحث الذي يدور حول قضية تدبر القرآن الكريم ، وما له من أهمية بالغة ، أمر بها المولى سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، ووجه عباده لتدبر القرآن الكريم ، وما يترتب على ذلك من فهم معانيه ، وأخذها والعمل بما تحويه من معاني وتوجيهات ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أهمية التدبر ببيان الحكمة من إنزال القرآن الكريم ، وأن جوهر القرآن ومكنونه لا يظهر إلا لمن تأمله وتدبره ، وتفكر فيه ، وأثار آياته ليعلم مكنونها ومضامينها ، ولن يصل إلى تلك المعاني السامية إلا من أدام النظر في آيات القرآن الكريم ، وأشبعها تأملاً وتدبراً ، وأولئك الذين أثنى الله عليهم بقوله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [الأنفال:٢]، وبناءً على ذلك لابد أن نصحح مسار تعليم القرآن الكريم ، من خلال الجمع بين الحفظ والتدبر للقرآن الكريم ، وتربية النشء على فهم معاني الآيات ، والانقياد لها ، وتطبيقها والعمل بها ، ليصبح الجيل قرآناً يمشي على الأرض، يقرأ ويستجيب ، وبذلك يحوز الجيل على الأمرين القرآن والإيمان معاً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التوصيات:

في نهاية هذا البحث خلصت إلى النتائج التالية:

١. حثت نصوص الكتاب والسنة على تدبر القرآن الكريم ليصبح عملاً محسوساً ، وأخلاقاً واقعية.

٢. حفظ القرآن الكريم مطلب سامٍ ، وهدف رفيع ، ولكن لا غنى للحافظ عن التدبر والعمل بكتاب الله تعالى.

٣. كثير من الجهات التي تعنى بتعليم القرآن الكريم تستفرغ جهدها في تحفيظ القرآن وتصحيح التلاوة ، وذلك جزء مهم من عملية تعليم القرآن الكريم ، ولكنهم أغفلوا تنمية جانب التدبر والعمل بالقرآن الكريم.

٤. كثير من المؤسسات واقعها ونشاطها لا يخدم ولا يحقق أهدافها ، إذ إن التربية على تعاليم القرآن

الكريم هو الهدف الأهم والأسمى التي تنشده ، ولكن واقعها يعمل على تحقيق أهداف أخرى ، ولذلك تلاحظ أن مخرجاتها لا تتوافق مع تلك الأهداف.

٥. نحن بحاجة إلى أن نعيد النظر في طرق تعليمنا للقرآن الكريم ، فلابد من وضع مناهج للمتعلمين تحفزهم على تدبر القرآن الكريم وفهم معاني ، بل تكسبهم ملكة التدبر لكتاب الله تعالى.

نسأل الله العظيم بمنه وكرمه أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.

٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، للشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي، المتوفى سنة ١٣٩٣هـ، أشرف على إخراجه الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رحمه الله ، دار عالم الفوائد ، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

٣. إعراب القراءات الشواذ ، لأبي البقاء العكبري المتوفى ٦١٦هـ ، دراسة وتحقيق محمد السيد أحمد عزوز، عالم الكتب، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤. تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ، حققه جمع من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

٥.التحرير والتنوير ، تأليف العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م .

٦.التذكرة في القراءات الثمان، للإمام أبي الحسن طاهر بن عبد المنعم بن غلبون المقرئ الحلبي ت:٣٩٩هـ، تحقيق ودراسة د.أيمن سويد ، طبعة الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى١٤١٢ -١٩٩١م] .

٧.تفسير القرآن العظيم، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، دار الريان، دار الحديث – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٨.جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ، دارك الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ

٩.جامع البيان في القراءات السبع المشهورة ، تأليف الإمام الحافظ أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني المتوفى سنة ٤٤٤هـ، تحقيق محمد صدوق الجزائري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

١٠. الجامع لأحكام القرآن،للإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة عام ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م.

١١. حقائق التفسير ،الإمام أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي المتوفى ٤١٢هـ، تحقيق سيد عمران، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م.

١٢. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تأليف أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٦هـ ، تحقيق د.أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م.

١٣. روح المعاني ، تأليف العلامة أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ، ضبطه وصححه علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى عام ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

١٤. زاد المسير في علم التفسير، للإمام جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

١٥. سنن الترمذي للإمام الحافظ محمد بن عيسى بن سورة الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩هـ، حكم على أحاديثه العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، عناية أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، مكتبة دار المعرفة، الرياض، الطبعة الأولى بدون تاريخ.

١٦. سنن ابن ماجة تصنيف أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني (٢٠٩-٢٧٣هـ) اعتنى به أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان ، مكتبة المعارف ، الرياض ، الطبعة الأولى بدون تاريخ.

١٧. صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤-٢٥٦هـ) اعتنى به الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي ، دار ابن حزم – بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٢٤-٢٠٠٣م.

١٨. صحيح مسلم ،للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٤-٢٦١هـ)، دار ابن حزم-بيروت -لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.

١٩. غاية الاختصار في قراءات العشرة أئمة الأمصار ، تأليف الإمام المقرئ الحافظ أبي العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن الهمذاني العطار المتوفى سنة ٥٦٩هـ ، دراسة وتحقيق الدكتور أشرف محمد فؤاد طلعت ، طبعته الجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بالجمعية الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة.

٢٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني المتوفى عام ١٢٥٠هـ، طبعة دار الفكر ودار الكلم الطيب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى عام ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

٢١. فضائل القرآن ، للحافظ أبي العباس جعفر بن محمد المستغفري ت: ٤٣٢هـ، تحقيق وتخريج الدكتور أحمد بن فارس السلوم ، دار ابن حزم -بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م.

٢٢. الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي المتوفى سنة ٢٣٥هـ، ضبطه وصححه محمد بعد السلام شاهين ، مكتبة دار لباز - مكة ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

٢٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام محمود بن عمر الزمخشري المتوفى ٥٢٨هـ، دار الكتاب العربي، ترتيب وضبط مصطفى حسين أحمد، بدون طبعة.

٢٤. المبسوط في القراءات العشر، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني، المتوفى ٣٨١هـ، تحقيق سبيع حمزة حاكمي، دار القبلة بجدة ومؤسسة علوم القرآن ببيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٥. محاسن التأويل،تأليف الإمام محمد جمال الدين القاسمي المتوفى سنة ١٣٢٢هـ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، اعتنى به وصححه الشيخ هشام سمير البخاري، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٢٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المتوفى سنة ٥٤٦هـ، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

٢٧. مختصر في شواذ القرآن ، من كتاب البديع لابن خالويه ، عني بنشره: ج.برجشتراسر ، دار الهجرة ، طبعة بدون.

٢٨. مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، تأليف الإمام عبد الله بن أحمد النسفي ت ٧١٠هـ، تحقيق الشيخ مروان الشعار، دار النفائس، ط الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

٢٩. المستدرك ، للإمام الحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري ، دار المعرفة ، بيروت - لبنان ، إشراف د.يوسف عبد الرحمن المرعشلي.

٣٠. معاني القرآن وإعرابه ، تأليف أبي إسحاق إبراهيم السري الزجاج، شرح وتحقيق د.عبد الجليل شلبي، عالم الكتب ، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣١. المغني في توجيه القراءات

العشر المتواترة ، للشيخ الدكتور محمد سالم محيسن ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م ، طبعته دار الجيل ببيروت ، ودار الكليات الأزهرية بالقاهرة.

٣٢. مفردات ألفاظ القرآن ، تأليف العلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي ، دار القلم - دمشق ، ودار الدار الشامية - بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ -١٩٩٢م .

٣٣. النشر في القراءات العشر، تأليف الحافظ أبي الخير محمد بن محمد الدمشقي المعروف بابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣هـ، دارك الكتاب العربي ، أشرف على تصحيحه ومراجعته الشيخ علي بن محمد الضباع، الطبعة بدون.

٣٤. النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري بن الأثير (٥٤٤-٦٠٦هـ) ، تحقيق محمود محمد الطناجي وطاهر أحمد الزاوي ، طبعة مؤسسة التاريخ العربي ودار أحياء التراث العربي ببيروت.

٣٥. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥هـ، تخريج عبد الرزاق غالب المهدي، توزيع مكتبة الباز - مكة ، ط الأولى ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.

فهرس الموضوعات:

المقدمة ٨٢٦
التمهيد ٨٢٧
مضامين البحث ٨٢٨
منهج البحث ٨٢٩
مراحل التدبر ٨٣٠
أهمية تدبر القرآن الكريم ٨٣٢
المبحث الأول: وصف القرآن {كتاب أنزلناه إليك} ٨٣٣
المبحث الثاني: أثر القرآن على تاليه {مبارك} ٨٣٥
المبحث الثالث: الحكمة من إنزاله {ليدَّبروا آياته} ٨٣٧
المبحث الرابع: نتيجة التدبر والعمل بمقتضاه {وليتذكر ألوا الألباب} ٨٤٢
المبحث الخامس: حال السلف مع تدبر القرآن الكريم ٨٤٥
المبحث السادس: طريقة اكتساب ملكة التدبر ٨٤٧
المبحث السابع: برنامج مقترح لتربية طلاب الحلقات على تدبر القرآن الكريم ٨٤٩
المبحث الثامن: الموازنة بين الحفظ والتدبر في حلقات تحفيظ القرآن الكريم ٨٥٠
خاتمة البحث ٨٥٣
التوصيات ٨٥٤
فهرس المصادر والمراجع ٨٥٥

المبحث .....:آيات تدل على وجوب التدبر:

{إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون } فلا يتأثر بالقرآن إلا من يتدبره

{وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا} فقراءته على مكث ليحصل التدبر والتفكر في آياته

{ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً} فلا يبكي إلا من يتدبر ولا يقوم الخشوع في القلب إلا لمن يتدبر القرآن الكريم

{الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته} فلا يتلوه ويتبع تعاليمه إلا من يتدبر أوامره ويفهم المراد

{إنا سنلقي عليكم قولاً ثقيلاً} وثقله كامن في ثقل تدبره وحاجته لإعمال العقل

{فاعتبروا يا أولى الأبصار} والاعتبار خاص بأولي الأبصار الذين يتبصرون في الآيات فيبصرون معانيها ودلالاتها.

{ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً} فلا من فهم الوعظ وتدبره

{أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت} فلابد من النظر والتدبر

{ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر} ولم يقل ولقد يسرنا القرآن للقراءة ليوحي بأن القراءة باب إلى التذكر الذي يحصل بالتدبر ، ثم قال فهل من مدكر ولم يقل فهل من قارئ ، لأن المراد هو التذكر والاعتبار

{إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد} فلا يعتبر إلا من بذل الجهد في التدبر والتأمل

حديث تزويج النبي صلى الله عليه وسلم الرجل بما معه من القرآن، قاله له النبي صلى الله عليه وسلم: "ماذا معك من القرآن؟" ، ثم قال صلى الله عليه وسلم للرجل: "أتقرؤهن عن ظهر قلب؟". صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراءة عن ظهر قلب ، رقم (٥٠٣٠) ص:٩٦٢